2013 12 18

صديقي العزيز، فنسنت فوستر وأنا كنا خليلين إبان عملنا معًا في مؤسسة روز الحقوقية، كان الرجل صديق طفولة بل، وأفضل أصدقائي أنا في روز، كنا نتحاور ساعات طويلة، نتناول الغداء معًا، نتضاحك حول الثرثرات الخبيثة، وجود فنس صديقًا جعل العمل في روز ممتعًا، وعوَّض عن بعض عيوب بل ونواقصه.

كان- بالتأكيد- ثمة كلام عن كوننا؛ فنس وأنا عاشقين، غير أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ كنا صديقين وحسب، جاء فنس إلى البيت الأبيض مساعد مستشار قانوني للرئيس ومحاميًا شخصيًّا لنا، وتولى تصفية حشد من ورطاتنا الشخصية التي لن أفصلها الآن، يكفي أن أقول إننا لم نكن- في أثناء عملي مع روز- مخوَّلين بالدفاع عن زبائن يتعاملون مع الولاية أو الدولة، ويؤسفني أن أقول إنني نسيت هذه القاعدة أو تجاهلتها أحيانًا، إلا أن منصب فنس الجديد أحدث انقلابًا مرعبًا في علاقتنا.

أصبحنا رئيسة وموظفًا، بعد أن كنا صديقين شخصيين حميمين، ورحت أنهال عليه بأوامري وفق أسلوبي المعهود صارخة: «انتبه يا فنس!». لقاءاتنا الودية، وجبات غدائنا المشتركة، وجلسات هذرنا انتهت، أحيانًا كان مستشارًا،

وأخرى كان وسيطًا، غير أننا لم نعد صديقين حميمين، كذلك كان فنس بطيئًا بعض الشيء في تنفيذ أوامري، ما أدى إلى إثارة غضبي.

أنزعج عندما لا تسير الأمور على النحو الذي أريدها أن تفعل؛ مثلًا أمرته بشطب اسمي من الإشارات جميعها إلى طرد عاملي مكتب سياحي معروف باسم ترافلغيت من قبل وسائل الإعلام، لم أشعر بأي ذنب إزاء الأمر، إلا أنني قدرت أن من شأن إبعاد اسمي عنه أن يعفينا من إشكالات لاحقة.

وكم كنت على صواب! نفذ الأمر، غير أن وخزات ضمير شعر بها حول تصرفاتي، لم يكن قادرًا على إنجاز المهمات بالسرعة التي كنت أريدها، وكان يعلم أنني لم أكن راضية، ففكر بالتخلي عن المنصب ولكن كبرياءه كان يمنعه من الإخفاق في أي شيء، كان الوضع مؤسفًا بالنسبة إلى كلينا، بذل كل ما استطاعه من جهد من أجلي بوصفي سيدة أولى، غير أن بقاءه صديقي الحقيقي بات مستحيلًا.

وذات يوم رهيب وأنا في زيارة أمي، انطلق فنس إلى العمل كالعادة، غادر في ساعة مبكرة من بعد الظهر قائلًا للعاملين في مكتبه إنه سيعود قريبًا، انطلق بسيارته إلى إحدى الحدائق بفرجينيا، استل مسدسًا، وأطلق الرصاص على ما بين العينين بدقة، حين سمعت النبأ غبت عن الوعي جراء الصدمة، ولُمتُ نفسي على عدم التنبؤ بما هو قادم والمبادرة إلى فعل شيء لمنعه، كلانا؛ بل وأنا غمرنا الحزن على فنس معًا، وبذل بل كل ما استطاعه من جهد لإقناعي بأن لا ذنب لي في ما حصل، وبأنني لم أكن أنا أو أي أحد آخر، قادرًا على فعل شيء لمنع وقوع المأساة؛ نظرًا إلى سرعة عطب فنس وهشاشته المفرطة، لا أصدق ذلك؛ أعتقد أن فنس انتحر لأنه ظن أنني لم أعد مهتمة به، لا أحد يستطيع إقناعي بخلاف ذلك.

بعد بضعة أيام، عثرنا على رسالة انتحار كان فنس قد تركها؛ تضمنت الرسالة عبارات: «اقترفت جملة أخطاء نتيجة الافتقار للخبرة، والجهل، وكثافة

العمل. محرر الوول ستريت جورنال يكذبون عبثًا. لم أكن معنيًّا بأي منصب في بؤرة ضوء الحياة العامة بواشنطن. تدمير الناس في هذه المدينة يعد نوعًا من الرياضة. لن يصدق الجمهور أبدًا أن عائلة كلنتون وجهازها المخلص بريئان». لم أنسَ الموضوع على الإطلاق.

قولي لي دكتورة: كيف يمكن تجاوز عبء انتحار صديق حميم، لاسيما إذا كنت تظنين أنك مذنبة؟ (تدحرجت الدموع من عينيها وكرجت على وجنتيها). قالت باكية: الألم لا يطاق، لا أستطيع إبعاد صورة ذلك المسدس الذي تنطلق منه الرصاصة المخترقة لرأسه من عقلي، تلازمني على الدوام، أراها بوضوح كما لو كنت حاضرة عند الإطلاق، وتشعرني بأنني أنا هي من ضغطت على الزناد، لماذا لا تتلاشى وتتركني في سلام؟ ألم يدرك مدى الألم والأذى الذي كان من شأن انتحاره أن يسببهما لي؟ لماذا لم أتصل به ذلك الصباح؟ لماذا لم يتصل بي هو؟ لماذا لم أقدِّر مدى غرقه في اليأس؟ ما الذي جعلني أستفزه حين قلت له: «حافظ على وتيرتك الجليدية في الحركة يا فنس! تعلم مدى إزعاج ذلك لي!». ألم يعرف أنني كنت أمزح وحسب؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ (انطفأ صوتها شيئًا فشيئًا وتلاشى حتى لم أعد أسمع سوى أصدائه الباهتة).

ما الذي كنت أستطيع قوله مما يمكن أن يساعد؟ سنوات دراستي وممارستي جميعها لم تسهم في إعدادي للرد على ذلك السؤال البسيط. غارقة في بحر من مشاعر العجز، أجبت كما كان يمكن لأي شخص آخر أن يفعل قائلة:

آسفة جدًّا يا هيلاري! أعرف مدى هول الشعور الذي يقض مضجعك، إلا أنني لا أعتقد أنك أو أي أحد آخر مسؤول؛ كان فنس رجلًا مريضًا، ضعيفًا، لم يستطع أن يتماسك بما يكفي ليدرك أنه حتى أكثر الأوقات سوادًا وحلكة ستمر، ذلك هو السبب الكامن وراء انتحاره.

أومأت إلا أنها واصلت البكاء.

ثمة أمر آخر يجب أن تعرفيه يا هيلاري، حاذية حذوك سأقتبس من شيكسبير الذي قال في السوناتا الثلاثين: «ما من محنة جديدة يا عزيزي، إلا وتحيي سائر بلايا الزمان». وكان يعني أن كل خسارة جديدة تعيد إلى الذاكرة الخسارات القديمة جميعها، فأنت إذن تحزنين مع كل فقدان جديد على سائر آيات الفقدان السابقة جنبًا إلى جنب مع نظيرتها الطازجة، في تلك المحطة الزمنية كنت قد فقدت أباك حديثًا، كنت تنوحين على أبيك بمقدار ما كنت تنوحين على فنس.

أومأت ثانية، وفجأة بدت الطاقة متدفقة إلى صوتها من جديد، راحت تقول: أنت على صواب! لطالما تساءلت عن سبب إصراري على إضفاء وجه أبي على وجه فنس في تلك الصورة التي ترفض الانصراف! شكرًا دكتورة؛ ساعدتيني وأنا مقتنعة بأن أحدًا لن يستطيع أن يفعل.

مسحت عينيها، نهضت عن أريكتها، مشت نحو المدخل رافعة الرأس، ترددت عند العتبة للحظة ثم التفتت وقالت بدفء: شكرًا، مرة أخرى دكتورة. سعيدة أنا لمعرفتك.

تمخض حزن هيلاري عن إيقاظ ذكرى المصائب القديمة عندي أنا كما عندها، وخيوط من الدمع بللت وجهي وأنا أبكي حزنًا على ابني، زوجي، وأبوي. للأسف لم يكن عندي سوى عشر دقائق للملمة نفسي قبل حلول موعد المريض التالي. تذكري لمسيرة عذاب هيلاري الطويلة ساعد على وقف دموعي، إنه تقدم حقيقي أن تجد امرأة درجت حياتها كلها على حبس مشاعرها في علبة مغلقة نفسها في حالة حداد بهذا العمق.